افلاطون وفلسفته

بقلم نجيب محفوظ

(صورة أفلاطون)

فى فترة البؤس التى تلت حروب البلوبونيز وفى السنة التى مات فيها ، بركليس ٤٢٩ . ق . م ولد أفلاطون فى أسرة نبيلة وقد تربى تربيـة أمثاله من أبناء النبلاء، ومن الغريب انه لم ينهج نهج أقرانه الشرفاء فى الحياة ، فلم تجذبه الحياة السياسية بسلطانها وجبروتها ولم تخدع ظواهر الأرستقراطية والألقاب وغيرها مما يتطلع اليها الشبان عموما وأبناء الطبقة العالية خاصة ، احتقر كل ذلك واطمأن إلى العزلة الفلسفية ، ولما بلغ العشرين صحب سقراط وتولد بينهما مايتولد عادة بين الفتى الذكى المجتهد والمعلم العظيم ، وقد تأثر افلاطون بسقراط ليس فقط فى آرائه ومعتقداته وإنما فى حياته وأخلاقه ، ولايخفى أن سقراط كان مثلا طيبا للرجل القوى الارادة القادر على كبح أهوائه المتبع فى الحياة آراءه وقواعده لايحيد عنها ولو تجرع كأس السم القاتل .

و بعد موت سقراط قام افلاطون بعدة رحلات طويلة زار فيها ميغاريا ومصر وغيرهما وقد أفادته هذه الرحلات فائدة جمة ، ففضلا عن أنها أكسبته خبرة بالناس والأخلاق وعادت على نفسه بالمتعة واللذة فانها أعدت له فرصة التعرف إلى الفلسفات القديمة والحديثة كالفيثاغورية والميغارية وغيرهما مما كان له أكبر الأثر فى حياته الفلسفية كما سترى فيما يلى ، وعاد أخيراً إلى أثيناوهو فى الأربعين حيث التف حوله طلبته وأخذ يلقى دروسه فى الأكاديمية ، وخيم السكون والتفكير على حياته زمناً طويلا ، ثم قام برحلتين أخريين قطعتا عليه حبل التفكير والسكون إلا أنه عاد إلى أكاديميته يستأنف حياة التفكير والتعليم ، ولم يكدر صفوه فى أخريات أيامه

إلا الانقسام الذى نشأ فى مدرسته والذى يعد أرسطو مسئولا عنه ، و بينما كان منهمكا فى الكتابة — أو فى حفلة عرس على قول آخرين — صعدت روحه فى رفق وهدوء كأنما أخذه بالعين إغفاء .

ونستطيع أن نقسم فلسفة أفلاطون إلى ثلاثة أقسام تبعاً لأطوار حياته المختلفة : أولها طور تعلمه، وثانيها طور رحلاته، وثالثها طور تدريسه .

فلسفة الدور الأول : تتأثر فلسفته هنا بفلسفة سقراط تأثراً ظاهراً ، فهو يحاول أن ينشىء أصولا عامة مطلقة للاخلاق ناهجاً نهج معلمه فى معارضة السوفسطائيين ، و يعترضنا فى منطق البحث كتابه « فيدروس » و إنه و إن صح أن أفلاطون وضع ذلك الكتاب فى ذلك العهد لحق القول بأنه توصل لمعرفة صفوة آرائه — كاعتقاده بسابق وجود الروح مثلا — وهو لا يزال شاباً ، أما إذا أسقطنا « فيدروس » من بحثنا فيظهر لنا من تطور عقليته (أولا) المحاورات التى ناقش فيها آراء سقراط مستعيراً لهجته فى البحث والمنطق ، فالجزء الذى من انشائه هو أول ما كتب ، وفيه يتكلم عن بعض المسائل الأخلاقية كالصداقة وقوة الاحتمال ، و يعتور تلك المقالات من عدم التناسق والضعف ما يدل دلالة واضحة على أنها كتبت فى أول عهد الفيلسوف بالكتابة ، (ثانياً) ردوده المختلفة على السوفسطائيين بنقد ظاهر آرائهم فيما يتعلق بتأثيرهم فيمن حولهم أو بمناقضة سقراط لهم ، ثم يناقش رأى سقراط فى الفضيلة القائل بأنها معرفة تعلم كيفية المعارف ، (ثالثاً) معارضته فكرة الفضيلة عند السوفسطائيين المبنية على الشعور الذاتى الذى يتطلع إلى السرور لأن الفضيلة — فى رأيه — ليس لها غاية خارجة عن ذاتها فينبغى أن يحل الخير محل السرور كقاعدة أخلاقية .

فلسفة الدور الثانى : درس الفيلسوف فى ذلك العهد فلسفة الاليين والفيثاغوريين مما أنضج فلسفته الخاصة وأوحى اليه بأعظم الأسئلة الفلسفية وأهبه لتحرير الفلسفة السقراطية من قيود الحياة العملية ، ولم يقصر بحثه فى الأخلاق بل ترك العنان لفكره يحلق فى أجواء المعرفة باحثاً عن جذورها الأولى الموضوعية متأثراً فى ذلك بطريقة سقراط التى تجعل من أجزاء البحث نظاما عاما معارضا فكرة بروتاجوراس السوفسطائى الذى يبنى قوانينه الأخلاقية وغيرها على أساس ذاتى ، وكان من نتيجة بحثه أن توصل إلى معرفة نظرية الأفكار لأنه فهم أن الأفعال نتيجة المعرفة التى هى نتيجة بدورها للافكار .

فلسفة الدور الثالث : وفيه تتمة فلسفة الدور الأول الأخلاقية مضافا اليها بحث عميق لمسائل الدور الثانى ، وانتهى من ذلك بأن كون نظاماً فلسفياً عاماً كان الأول من نوعه فى تاريخ الفكر الانسانى ، و بحث فيه ابحاثاً اجتماعية تصور فيها الأمثلة العليا للحكومة والمجتمع .

ومجمل القول أن فلسفته تتضمن علوماً عملية وأخرى نظرية . ولعل تقسيم أرسطو لفلسفته إلى فلسفة طبيعية ومنطقية وأخلاقية أصدق التقسيمات لأنها حصرت آفاق أبحاثه فى هذه الفروع الثلاثة ، و يلاحظ أنها فى كتبه ممتزجة لا تمايز بينها ، غير أن الجمهورية يغلب عليها البحث الأخلاقى وتيموس تنطبع بطابع البحث الطبيعى .

أفلاطون وبروتاجوراس :

لا يفرق بروتاجوراس بين المعرفة والادراك ، فالأشياء هى فى الواقع كما تبدو لنا ، والادراك يتنزه عن الشك والاضطراب ، ولما كانت الادراكات تختلف باختلاف الأفراد بل هى تختلف فى الفرد الواحد تبعاً للاحوال المختلفة فأنه من غير المعقول أن ينهض قانونا عاما أو قاعدة عامة ، وعليه فالحقائق نسبية ليس غير ، وناقض أفلاطون هذه النظرية . ونحن نلخص أدلته فيما يلى:

(١) إذا كان لا فرق بين الكائن والظاهر أو بين المعرفة والادراك ، فأن أى حيوان له قدرة على الادراك يصح أن يتخذ إدراكه قياساً للاشياء ، كذلك يصح حكمى وأنا عليل ، وإذن فليس هنالك ثمة فائدة من التعليم والمناظرة !

(٢) فى تصديق النظرية تناقض منطقى لأن بروتاجوراس ينبغى أن يعد المناظر الذى يخطئه صادقا فى حكمه و إدراكه !

(٣) إن هذه النظرية تقضي على الادراك نفسه لأنه متوقف على الموضوع « المحسوس » ولما كان هذا الأخير عديم الثبات فتغيره الدائم هذا يجعل الادراك أمراً مستحيلا .

(٤) كذلك بروتاجوراس لم يشر بكلمة إلى إدراك العقل ، فنحن قد نسمع ونرى ونشم ونلمس ونذوق بالحواس ، ولكن اندماج هذه الاحساسات ذات الأعضاء المختلفة فى حيز شعورنا لا يتأتى بالحواس ، كذلك أننا نصف المحسوسات بالاتفاق وعدمه والاختلاف والتشابه كما أننا نقارن بين الادراكات المختلفة . ليس ذلك بالحواس لأنه من رابع المستحيلات أن نتلقى إحساسات السمع عن طريق العين أو العكس (١) .

وكما ميز افلاطون بين المعرفة والادراك ميز بينها و بين الاعتقاد ، وجعله فى مرتبة بين المعرفة وعدمها . والمهم أنه لم يعتبر الاعتقاد متحققاً فى المعرفة .

علاقة العلم بالفكر : الكون عالمان : عالم منظور وهو المتقدم المطرد فى تقدمه ، الذى يتجه من الماضي إلى المستقبل ماراً بالحاضر . وعالم دائم ثابت غير متغير أزلى لانهائى ، ونحن

---

(١) يقول بعض علماء النفس بعدم استحالة ذلك . وقد قرأنا فى أحد كتب وليام جيمس قرأنا له تلخيصا لاقوالهم: وهم يفسرون ذلك بأنه ان أمكن نقل أعصاب العين وشعيراتها الى الاذن لكنا نرى بآذاننا .

نتوصل لمعرفة العالم الأول خلال الاعتقاد مستعينين بالحواس ومعرفتنا له مشوشة مضطربة . أما الثانى فنرقى إلى معرفته معتمدين على التفكير العقلى ، ومعرفته صحيحة صادقة ، فالقوة العقلية هى وحدها القادرة على كشف الحجاب عن نور الحقيقة الأبدية الكامنة خلف ظواهر الأشياء . وهذا هو العلم الصحيح ، وكان يسمى الحقائق « بالأفكار » !

النظرية المثالية : بنى افلاطون هيكل هذه النظرية الفلسفية الهامة مستعيناً بثلاث دعائم أولها فكرة سقراط التعميمية ، وثانيها « استحالة » هيراقليط ، وثالثها الكائن المطلق الذى تصوره برمنيد .

كل شىء فى الوجود ، كالخير والجميل ، والقوة والانسان ، والنار والماء الخ الخ ، له مثال فى عالم الأفكار . والمثال أو الفكرة يمكن تعريفها بأنها العنصر العام للمختلفات : الانسانى للفرد ، والوحدة للكثرة ، وهى أصل المعرفة ومبدؤها كما أنه ليس لها أية علاقة بالتجاريب أو الحواس ، ولما كان لكل شىء مثال فهو لم يوجد عبثاً ولا صدفة ، والفكرة سابقة لنسختها المادية ، ولكى نتصور ذلك نضرب مثلا بالدائرة فهى موجودة بذاتها قبل أن ترسم فى حيز . كذلك جميع الأشياء المادية من كائنات حية وصفات وعلاقات لها مثال فى العالم العقلى سابق لمشخصاتها فى العالم المادى ، فالمثل مبدأ المعرفة ، ويتميز بصفتين :

(١) الشمول لكل الموجودات التى من جنس واحد .

(٢) جوهرى موجود بذاته وهو أتم وأكمل من مشخصاته ، والمثل مرتبة حسب درجاتها من الكمال وعلى قمتها مثال الخير .

العلاقة بين الأفكار وعالم الحس : لم يقرر افلاطون هذه العلاقة تقريراً يطمان اليه لأن الأدلة التى ساقها مخلخلة بالتناقض ولم تعل كثيراً عن الفروض ، ولم ينفض عنها الشكوك عندما قال : إن الظواهر هى صور من الأمثلة الموجودة فى عالم الأفكار ، وعندما ناقش فكرة الاستحالة وبحث عن حقيقتها صرح بأن الأفكار — الدائمة الجوهرية — هى — وحدها — الحقيقة ، وعد المادة غير موجودة وأن المحسوس ماهو إلا شبيه بالموجود — الموجود الحقيقى ، وفى الكثير من الأحايين يتكلم افلاطون عن العالم المنظور كما لو كان مظهراً يدرك بالشعور الذاتى ، وفى جميع الأحوال الذى يفهم من تقريراته هو أن الموجود الحقيقى واحد ، أما عالم الحس فما هو إلا صورة من ذلك الوجود الحقيقى ، ولكن لانلبث أن نصطدم بتناقض عظيم يقضى على هذه الوحدانية فى أبحاث الفيلسوف التى وجهها إلى الروح والجسد ، وما قرره بينهما من العداوة المستديمة ، ثم أقواله عن المادة ومقاومتها لقوة الأفكار الخالدة . فكل هذا يدلنا على وجود قوتين متضادتين وعنصرين منفصلين لاقوة واحدة وعنصر واحد .

فكرة الخير والكائن الالهى :

علمنا أن الأفكار فى عالم العقل مرتبة تبعاً لدرجات الكمال ، أو بعبارة أخرى هى متسلسلة كل واحدة منها أسمى من التى قبلها ، ولكن لابد أن يكون لتلك السلسلة نهاية وأن يكون للأفكار فكرة عليا هى أصل الجميع ، وتلك الفكرة هى فكرة الخير ، هى أساس المعرفة ، أصل المثل ، مبدأ الحقيقة ، منبع العقل ، وهى فوق الجميع ، ليس لها أصل فوقها ، فهى مطلقة جوهرية ، وقد يتساءل ما علاقة هذه الأفكار بالله ؟ وليس عندنا جواب صريح على هذا السؤال ، والظاهر أن افلاطون لم يبحث ذلك بحثا خاصا ، وكثيرا ما يقتنع القارىء بأنه لايفرق بين فكرة الخير والله .

الطبيعة وكيفية الوجود :

قبل الوجود كانت توجد قوة مبدعة — كأصل عام متحرك ، وعلى جانبها العالم المثالى الدائم ، ثم الماء الذى يحوى فيه جراثيم العالم المادى ، ومن هذين العنصرين خلق الخالق « روح العالم » وهى سر قوته ونظامه وحركته ، ثم إن القوة المبدعة بعثت روح العالم لتملأ به الفراغ الذى تركه العالم حينذاك ، مقسمة إياه الى قسمين يملأهما على التوالى النجوم الثابتة والكواكب . ثم قسم القسم الأخير إلى سبع دوائر خاصة .

ثم تكونت العناصر الأربعة ووجدت الدنيا فى الفراغ الذى ملأه الروح ، فكان روح العالم هى الحد الأوسط بين عالم الأفكار وعالم الأجسام ، هى الواسطة التى استندت عليها الفضيلة فى صنع المادة .

الروح : هى أبدية ، من أهم صفاتها التطلع إلى معرفة الالهة الخالد وغيره من المعانى الجوهرية أثناء تأملاتها في عالم المثال ، غير أن اتصالها بالجسم لا يقل فى أهميته وخطره عن اتصالها بالملأ الأعلى ، وأثناء اتحادها مع الجسم تخضع لما يخضع له من الحركات والتغيرات كما أنها تتأثر بمطالبه الحسية وأطماعه وشروره ، من هنا قام النزاع فيها بين ماهو أسمى وماهو أدنى كل يحاول التغلب واجتذاب الآخر اليه في شدة وعنف ، ولا يقتصر التأثير على الروح من الجسد وإنما هو متبادل بينهما ، والروح تحاول انتشال الجسد من ورطته ، لتسمو به فوق الشهوات ، وفي الروح عنصر خالد ينتمى إلى العقل وعنصر لا صلة له بالعقل يسرى عليه الفناء ، وبين هذين العنصرين تتولد صفة الشجاعة ، ولما كان من الممكن أن توجد فى الأطفال وبعض الحيوانات فهى ليست من العقل فى شىء ، وعلى العموم نستطيع أن نميز ثلاثة أنواع للنفس : نفس عاقلة فى الرأس ، نفس غضبية فى القلب ، ونفس شهوانية فى البطن .

وعقاب الأرواح التى تتحكم فيها رغبات الحواس ، هو أن تحل مرة أو مرات فى أجسام أخرى — ربما كانت منحطة — حتى تطهر من أدرانها .

الأخلاق : تتلخص في معرفة الغرض والنهاية، فهي نظرية المثال في شكلها العملي ، تتكلم على الخير السامي ، أو الخير المطلق ، وهو في نظره السمو إلى الحق إلى المثال الأعظم ، أما غاية الروح فهي التخلص من حبال الشهوات والمطامع لكي تكون نقية عادلة وتسمو إلى مصاف الآلهة ، ولا يتأتى ذلك إلا بامتلاك عنان النفس ، وهجر الرذائل، والسكون للفكر ، والتأمل والاستغراق في معرفة الحق أو — باختصار — التوجه إلى الفلسفة .

أما عن رأيه في الفضيلة فقد اعتنق رأى سقراط القائل بأن الفضيلة معرفة تعلم كبقية المعارف ، أما فيما يتعلق بوحدتها فقد عدها وحدة وكثرة في آن واحد ، وحدة باعتبار أن كل فضيلة متوفر فيها خواص « الفضيلة المطلقة » وهي كثرة بالنسبة للصفات العديدة التي تتمثل فيها ، أما أهم الفضائل الأساسية فقد استخلصها من تقسيمه السابق للروح : ففضيلة العقل الحكمة ،وفضيلة القلب الشجاعة، وفضيلة الحس الاعتدال ، ثم أضاف اليها العدل .

جمهورية افلاطون : هي مدينة بناها أفلاطون من تحت خياله ليوفر لسكانها السعادة، وسكانها قليلون بحيث لا يستحيل عليهم التعارف ، وكل شيء فيها رهن الفائدة العامة ، ولهذا فالدولة تتصرف تمام التصرف في الفرد وعمله وطبقته وعلاقته الجنسية وأولاده ، والأملاك مشاعة كالأطفال الذين لا يعرفون أباً ولا أماً ،وليس لهم إلا مدينتهم يبذلون في سبيلها كل غال.

والمدينة ثلاث طبقات : طبقة الأوصياء والمقاتلين والزراع وهم يعملون للدولة كما تعمل الأعضاء للجسم ، كل يقوم بوظيفته الخاصة، ولا يضمن الصحة للجسم إلا تقسيم هذا العمل بين أعضائه كما لا يضمن السعادة للدولة إلا قيام كل طبقة من الطبقات الثلاث بالواجب الملقى على عاتقها ، ونلاحظ هنا أن الطبقات تتبع في تقسيمها أنواع الروح السابقة الذكر ،والامتلاك والزواج مباح في طبقة الزراع بينما هو محرم في الطبقتين الاخريين ولعل الباعث على ذلك هو شدة اهتمامه بهاتين الطبقتين اللتين تضع إحداهما للامة دستورها وتكفل لها حريتها وتبحث لها عن خير الوسائل لأسعادها وتدافع الأخرى عنها وتكفيها شر غائلة العدو .

على أن الطبقات لم تكن جامدة ، وكان الطفل الذكي — مهما كانت طبقته يربى تربية الأوصياء كما أن ذوي العاهات كانوا يقتلون ، بصرف النظر عن الطبقات التي ينتمون اليها .

إلى هنا نختتم الكلام عن فلسفة أفلاطون ولو أردنا أن نوفيها حقها من التلخيص والتعليق لما كان يكفي لهذا الغرض مجلد كبير ؟

نجيب محفوظ

اطلب الأعداد التي تنقصك
من الادارة مباشرة